الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

(تابع)

فى أسبرطة

العشاق يتآمرون

ملخص ما تقدم

« سقطت طروادة وعاد كل المحاربين من اليونان إلا أوديسيوس فطمع أمراء الأقاليم المجاورة فى زوجته الجميلة بنلوب وحاصروا بيتها ، وأحزن ذلك إلهة الحكمة ميرفا — أو بالاّ أثينا — فحرضت ابنه تليماك على أن يقف فى وجه العشاق ، وأن يبحر إلى بيلوس ليسأل أميرها نسطور عن أبيه وأبحرت هى معه فى صورة أمير البحر منتور وهو لا يدرى أنه هى ... وأكرم نسطور وفادة تليماك وقص عليه ما كان بعد سقوط طروادة وأرسله معززاً مكرماً إلى أسبرطة بعد أن أيقن أنه منتور أمير البحر الذى يصحب تليماك إن هو إلا ميرفا . وقد ذهب تليماك مع أكبر أبناء نسطور إلى أسبرطة ليسأل ملكها منالايوس — زوج هيلين التى كانت سبباً فى حرب طروادة — عن أبيه »

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غوّر فى

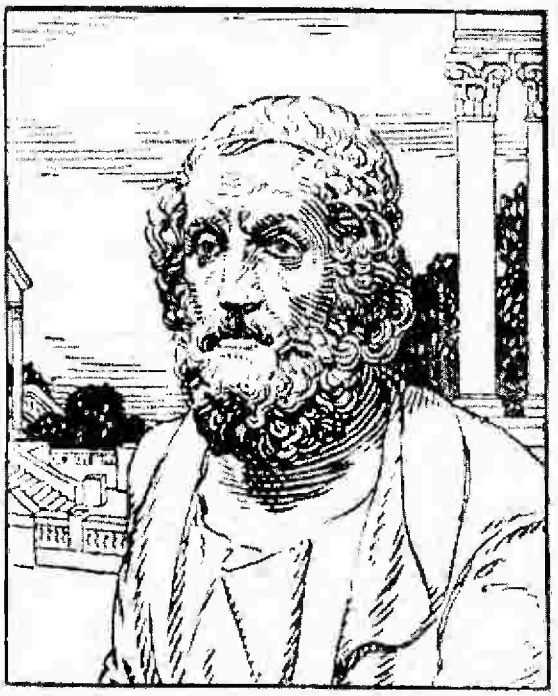

هوميروس

وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منالايوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجماهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ؛ ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياتهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه وندماؤه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويتطربون ... ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حدب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنة ألكتور العظيم ؛ ثم بابنته الفتان اللعوب الطروب التى رزقها على كبر من هيلين ، والتى نافست بجمالها ودلها هرميون ابنة ثينوس

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحهما إتيون ، كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدثه عنهما . . « إن لهما لهابة و إن عليهما لرواءً ، فهل

يأذن لها مولاى أم يأمر فتردها من حيث أقبلا ؟ »

وأومأ الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب اليهما ، يسير بين أيديهما إليه ... « ... إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء »

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب الى الوافدين الكريمين فحيّا وسلم ، وحل اللُّجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلألأت فى الأنوار الوضاءة والسُّرُج الوهاجة ... ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما الى الحمامات المرمرية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكة ثم ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لهما وبش ، وأجلسهما الى جانبه على مقعدين وثيرين ، وهما فى دهش من ذاك المنظر العجب . وأقبلت فتاة فسبت على أيديهما الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من أفخر الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ، وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ فى إيناسه لهما والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبرانه عن أمرهما ، وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تليماك صاحبه فقال :

« بيزستراتوس يا صديقى ! ما أجل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحفل الباهر يتألق فى الذهب والفضة والعاج والكهرمان ودروع النحاس ! أبداً ما ترى العين مثل ذلك ، ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولمب فى شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأى كنز ؟ !

وسمعه منالايوس الملك فقال :

« بنى : لا تقرن أحداً منا — نحن بنى الموتى — الى سيد الأولمب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار وكنوز ، فقد سحت فى أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر الغوالى من كل فج ... من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا وإيرمبى ... ومن صيدا وليبيه ... ورؤوس الشاء والوعل هذه ... الوعل الوحشى السائم ... والشاء التى تمدنا بخيرها بغير حساب ... لقد طوفت فى الآفاق وتركت فى كل منها ذكرى . ولا غرو ، فقد نبأكم آباؤكم بذكر منالايوس الملك الذى دك المعاقل وهدم القصور ... ما أنس لا أنس هذا القصر العتيد الذى جعلت عاليه سافله بما فيه من أذخار وقُنى ، وددت لو كان فى قصرى شىء منها ، وود الأغريق لو حصلوا فى بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح ! يا ويح نفسى ! يا رحمتا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا ثمة ! ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسى ؟ لشدّ ما يندلع الأسى فى قلبى عليهم جميعاً ، ولا سيما صفيى وخليلى وأعز أودائى علىّ ... أوديسيوس ! ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعرى يا صديقى فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحى ترزق ؟ أم ثويت فى بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، الى حومة الوغى وحلبة الحمام ... » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهتاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شئونه فى طرف ثوبه ... بين دهشة منالايوس وحيرته ، وذهول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشأ الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة كأنه ديانا ربة القوس الذهبية ...

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يدا أدرستا وعناية أكليب ، ثم أُحضرت الطرف والهدايا واللهى ... فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج پوليب أمير طيبة ، عروس الدائن المصرية ؛ وتلك عشر بِدَر من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الابريز ... يقدمها كلها ملك أسپرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء ... ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس ... الصغير تلياخوس ... الذى تركه أبوه صبياً فى المهد من جراء حرب إليوم المشئومة . »

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتر العينين واسترسال اللمتين [1] بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبى من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار إليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم »

وانتهز ابن نسطور الفرصة فقال :

« حقاً أيها الملك إنه هو ! ولكنه خجول حيى ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فانى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تلياخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيان قد ذهب ... وهاك ابنه المكلوب يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه . »

وشُدِه البطل — ذو الشعر الكهرمانى — فقال :

« يا للآلهة ! أهكذا أفاجأ بلقاء ولدى ! أنت ! أنت ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، وما يزال يناضل الويلات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لشدت لك مدينة فى آرجوس تنيه على الدائن وتزهى على القرى : ورفعت لك عماد قصر منيف طالما كنت أخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ومن بعد .. ولنلذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع ... آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء ... فحرمتك كل شىء ، حتى الأوبة إلى أرض الوطن ! »

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تلياخوس ، وأذرفت الملكة ، وانبجس الدمع من عينى پزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها ، ثم قال : « حسبك أيها

(١) اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن

الملك ! لقد تذاكرنا ، أنا وصاحبي ، جلائل أعمالك فعرفنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وابن أبى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناى برؤيته ! أوه يا ابن أودودا الغادر ، شلت يداك بما فتكت بأخى ! ... »

وتعطف الملك فطيّب ابن تسطور بكلمات عاليات ، وأمر الندمان فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا فى آكالهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذْهِب الأحزان فى كأس تليماك ، وكأس صاحبه ، لايعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجيبة أهدتها الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية بولدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبين !

وتكلمت هيلين ، فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة المتيدة ، وكيف قابلها فى حجرة باريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برّت فلم تنبىء أحداً بوجوده .. ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع باريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن ڤينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به باريس من أنها ستهبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة[1]) . « واخجلتاه !

(١) الأياذة — قضى باريس بالتفاحة لڤينوس وحرم منها منيرفا وجيرا وذلك سبب عداتهما للطرواديين

لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى اليافعة إلى بلاد قاصية لاناقة لى فيها ولا جمل ... »

وأعذرها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جأشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس لا أنس يوم الروع الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة العجيبة ، حيلة الحصان المحمولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم أو بعض يوم ، وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس[1] الصناديد . وكنت أنا — سقى الله الشباب — واحداً منهم ، فما أنسى قط حين أقبلت فى عصبة ذوى أيد من مذاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلت أنت تنادين بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لترى هل اختبأ منا بداخله أحد كما تنبأ بذلك المتنبؤون . تالله لقد كدت أرد عليك نداءك حينما هتفت باسمى ؛ وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو أن أحداً منا خدع فنبس ببنت شفة ... وا حَرَبا !!! لقد صمتنا جميعاً ولكنك عاودت ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلبى ، لولا أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهق روحه !!! ولم يُمْنِه حتى أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكرون »

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف

(١) اسم يونان القديمة

تليماخوس واستأذن الملك فى الانصراف ليأخذ كل نصيبه من النوم ، فتأذن ، وأشارت هيلين إلى وصيفاتها فأمرن الى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن الملاحف والوسائد والحشايا ، ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بيزاستراتوس وتليماخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى سريره ، وناما ... فى ... ... سمور وفى قاقم وفى سنجاب

وتهاويل غير ذاك من الر

قم ومن سندس ومن زرياب[1]

ونهض الملك والملكة كذلك فدخلا القصر ، واستلما لأطيب الرقاد

* * *

وذرّ قرن أوروزا ، ربة الفجر ، فى المشرق الوردى ، فهب الملك وأصلح شأنه ، ورف بازيه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى الى مجلسه حيث لقى تليماك فى انتظاره ، فحيّا وجلس وبدأ حديثه فقال :

« أى بنى : تليماخوس ! أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك الى هنا ؟ الى رحاب ليسديمون[2] فى فلوات البر وسروات البحر ؟ ألأمر عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ »

وأجاب تليماك : « مولاى الملك ! منالايوس العظيم ! لقد جئت أتحسس خبراً عن أبى وأقبلت أحدث عن أعدائه الذين آووا الى بيته فما يزعمون يستنزفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً فى كبر وزهو وخيلاء . . . من أجل زوجه ! ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل شىء ... كل نعمه وكل شائه ، ولم يعفوا آخر الأمر عن عرضه . انى أستجيرك يا مولاى وأضرع اليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل قضى تحت أسوار إليوم ؟ أم غالته يد المنون فى ركن آخر من أركان الأرض ؟ لقد كان خليلك وصفيك وآثر أصدقائك ، وأعز أودّائك عليك ، فبكل آلاء ذلك عندك أستحلفك أن تصدقنى ... ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عسيت سمعت من أنبائه ؟ »

وتنفس الملك تنفسة عميقة وقال :

« يا أرباب الأولمب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا أوديسيوس فى عرضه ؟ ! ألا باءوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة التى أجاءها المخاض فولدت فى عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها[1] ! حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينرفا ! أبوللو[2] ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بفيلوميليد العتى من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم ... فطب نفساً يا بنى ! إنى منبيك بما علمته عن أبيك من (بروتيوس) راعى الأعماق ، وكاهن الأغوار

ضلت بنا الفلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطئان مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان فى مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التى تجرى من تحتها الأنهار ،

(١) الشعر لابن الرومى لم نجد أحسن منه فى ترجمة أبيات هومر

(٢) من أسماء اسبرطه

(١) جمع غفر وهو ولد الوعل

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين فى حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء

ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفد الصبر ، وفرغ الزاد ، وظننا أنه المعاد ، لولا أن رئت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث ، كنت أجلس وحدى فى منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحون يرتادون الماء بشصوصهم[1] عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاءً لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق بروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتنى فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضيا ، ولا تلتمس مخرجاً ، ولو هلك كل أصحابك ! »

ولم أبال أنى شدهت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إنى ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولكن خبرى بحقك إذ الآلهة تعلم كل شىء — من من أرباب السماء يحبسنى هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد الى وطنى فوق غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبئك فأصدقك : إنك الآن مقيم بشطئان مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، بروتيوس ، سيد الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا البحر ، فاذا استطعت أن تتفقده فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فانه يقفك على أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً الى بلادك . بل ربما — إذا طلبت اليه ذلك — وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صفى السماء وحبيب الآلهة » .

غير أنى لم أدر كيف تستطيع أيدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الآله البحرى الكريم ؛ ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت لها أنه ربما ولى دبرة إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها طمأنتنى ، وذكرت أن أباها يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جون قريب حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . . « فاذا كانت هذه الساعة فانى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ، وإياكم أن يرهبكم بشىء أبداً ؛ إنه سيكون تارة شيلارابيا ، وتارة سيكون ناراً تزمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر ، وأخرى يكون أفعواناً هائلاً ينفث السم . . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تفتلوه فتهلكوا . . . فانه إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم ترونه بعد ذلك أسلس قياده ، وهدأ وتطامن . . فاذا فعل ذلك سألكم عن حاجتكم ، فدعوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فانه مجيبكم عما تسألون . »

(يتبع)

دريني خشبة

(١) الشص حديدة عقفاء يصاد بها السمك (السنارة)